التدرج في الدعوة الإسلامية وأثره في إقناع المدعوين

إعداد

دكتور / مصباح منصور موسى مطاوع

أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله ربه نورا وهدى ورحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

أما بعد

فإنه من الحكمة فى الدعوة الإسلامية ألا يدخل الداعي على المدعو فيطلب منه تغيير كل شيء في حياته مرة واحدة، فذلك مدعاة لتنفيره ودعوته لترك الانقياد والثبات على الدين، ومن هنا كان التدرج أمرًا مطلوبًا مع المدعوين بما تدعو له الحاجة، بل إن التدرج بالأحكام سمة لهذه الشريعة الغرَّاء، فقد ورد فى الصحيح عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (إنما نزل أول ما نزل منه (أي القرآن) سور من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام؛ نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)[1].

هذا الحديث يعطينا أهمية التدرج في الدعوة إلى الله، وذلك على حسب الأحوال والأزمان والمدعوين، وذلك لأن التفقه في حال الدعوة ومكانها ورجالها ومن تدعوهم؛ لهو أمر هام في إعطاء العلم النافع في وقته، والتأثير يكون أقوى، إذ أنه يكون بمثابة الغيث الذي إذا أصاب أرضا خصبة جعلها مُخضرَّة.

والناظر لدعوة النبي محمد ﷺ وأسلوبه في الدعوة يعرف أنه كان يأخذ على يد كل إنسان بقدر ما يستطيع، ويتدرج مع أصحابه في الأمور التي يعرضها عليهم كي يقبلوها.

---

١ - أخرجه البخاري في صحيحه ١٥ \ ٣٩٤ باب تأليف القرآن عن عائشة .

فلقد بدأ ﷺ دعوته سرًا، ولما اشتد عودها وأصبح لها همسات عند الناس مسموعة أمره الله تعالى أن يخرج للناس جهرًا بدعوته فقال:

(قُمْ فَأَنذِرْ) [1]وقال: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [2] وقال: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) [3]، فكانت دعوته جهرًا بعد ذلك، والعلة وراء هذا التدرج: كسب القلوب، ومراعاة النفوس حتى لا تنفر من دين الله، وتيسير الانقياد والطاعة له سبحانه، وترسيخ مبدأ الثبات حتى الممات.

كم نحن بحاجة لمعرفة فقه هذا الأمر واستيعابه وتطبيقه فى مسيرتنا الدعوية؟ إذ الأخذ بالتدرج سبب عظيم لنجاح الدعوة الإسلامية بل إنه من الحكمة التي دعانا الله لها في كتابه بقوله: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنة.. الآية) [4].

فليس مطلوبًا منك أيها الداعية أن تقول للناس كل ما تعرفه للمدعوين، وأن تأمرهم بكل شيء أو أن تنهاهم عن كل شيء مرة واحدة، إنما المطلوب أن تأخذ على أيديهم وتصعد بهم السلَّم درجة درجة حتى تصل بهم إلى نهايته.

لأهمية هذا الموضوع فى الدعوة، ولحاجة الناس إليه _ لا سيما في هذا العصر الذي تعددت فيه الأفكار وتنوعت الاتجاهات- أحببت أن أكتب فيه، أملًا في أن يلتفت الدعاة إلي مثل هذا الأسلوب الهام في دعوتهم ومحاورتهم للمدعوين على اختلاف اتجاهاتهم العقائدية والفكرية، حتى تنجح الدعوة وتتحقق أهدافها في المجتمع سائلا الله سبحانه التوفيق

---

١ - المدثر ٢ .

٢ - الحجر ٩٤ .

٣ - الشعراء ٢١٤ .

٤ - النحل ١٢٥ .

والسداد.

والبحث يتكون من (مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة)

المبحث الأول: مفهوم التدرج وأهميته فى الدعوة الإسلامية.

ويشتمل على:

١- تعريف التدرج.

٢- أهمية التدرج فى الدعوة الإسلامية.

٣- الحكمة من التدرج في الدعوة الإسلامية.

المبحث الثاني: نماذج من مجالات التدرج فى الدعوة الإسلامية.

ويشتمل على:

١- التدرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- التدرج في طلب العلم.

٣- التدرج في التربية .

٤- التدرج في إصلاح المجتمع.

٥- التدرج في الحوار والمناظرة.

٦- التدرج في نزول الأحكام الشرعية وعرضها على المدعوين.

المبحث الثالث: أثر أسلوب التدرج فى إقناع المدعوين.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

أسال الله تعالى أن ينفع بهذا العمل المتواضع المسلمين، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم الدين، إنه خير ناصر ومعين.

المبحث الأول:
مفهوم التدرج وأهميته فى الدعوة الإسلامية

أولا: تعريف التدرج:

التدرُّج في اللُّغة يعني الاقتراب شيئًا فشيئًا، جاء في المعجم الوسيط: "وتدرج مضارع درج، وتدرج إليه تقدم شيئًا فشيئًا وتدرج فيه تصعَّد درجة درجة"[١].

ومنه الاستدراج.. واستدرجه أي قرَّبه وأدناه على وجه التدريج، جاء في "لسان العرب": "ودرجه إلى كذا واستدرجه بمعنى، أي أدناه منه على التدريج"[٢].

وقد ورد الاستدراج في القرآن الكريم في قوله تعالى: (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)[٣].

يقول الإمام النسفي مبينًا معنى هذه الآية الكريمة: أي (سندنيهم من العذاب درجة درجة، يقال: استدرجه إلى كذا أي استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه)[٤].

وعلى هذا فإنَّ التدرُّج في الدين يعني الدخول فيه شيئًا فشيئًا ورويدًا رويدًا، واستدراج الناس إليه درجة درجة.

وأما كلمة التدرُّج عندما تطلق في التشريع الإسلامي فيراد بها: نزول الشرائع في عهد النبي ﷺ متدرجة متفرقة، فكثير من أحكام القرآن لم تنزل جملة واحدة، بل كان الحكم يأخذ أطوارًا عديدة حتى يصل إلى طوره

---

١ - المعجم الوسيط مادة (درج)، ط دار إحياء التراث الإسلامي، ٢٧٧/١.

٢- لسان العرب، مادة (درج)، ١٣٥٢/٢.

٣ - القلم ٤٤ .

٤ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣ \ ٤٦٠ .

الأخير، كإيجاب الصلاة وتحريم الربا والخمر..الخ كما سيأتي إن شاء الله.

ثانيا: أهمية التدرج فى الدعوة الإسلامية:

التدرج: واحد من أبرز المناهج المستخدمة في حقل الإعلام الدعوي، وباستعراض الظواهر الطبيعية والإنسانية في هذا الكون، نرى أن هـذه سنـة الله فـي خَلْقـه، فمـا تكونـت الجبال إلا مـن الحصـى، وما ناطحات السحاب إلا لبنات رُصَّت فوق بعضها، وقد خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وكان قادرًا أن يقول لها: كوني فتكون، ولكنه خلقها في أيامٍ ستة، يعلمها هو سبحانه، كما خلق الإنسان والحيوان والنبات في مراحل متدرجة، حيث مر الإنسان في خَلقه بمراحل متزامنة، كل مرحلة تُبنى على ما قبلها وتُسلِّم لما بعدها، حتى أصبح على هذه الصورة التي خرج بها من رحم أُمِّه إلى هذه الحياة الواسعة، وما النطفة والعلقة والمضغة والعِظَام إلا دليلًا قاطعًا على هذه السنة الكونية:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[1].

كما أن التدرج المرحلي قد ارتبط بحياة الإنسان نفسها منذ مولده وحتى وفاته، وفي ذلك يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً)[2].

ومن هنا نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ متدرجًا، وفي ذلك يقول عز وجل: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ

---

١ - المؤمنون ١٢: ١٤

٢ - الروم:٥٤.

لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا)[1].

وجاءت سنة التدرج تيسيرًا من الله لعباده فيما يُشرِّعه لهم، حلالًا كان أو حرامًا، فحين فرض الفرائض على عباده، كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة، فالصلاة فُرضت أول ما فُرضت ركعتين ركعتين، ثم أُقِرَّت في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع، في الظهر والعصر والعشاء.، وثلاث في المغرب، وبقيت صلاة الفجر على أصل التشريع.

وكان صوم عاشوراء في البداية مسنونًا قبل رمضان، ثم فرض صوم رمضان أولًا على التخيير، من شاء صام ومن شاء أفطر وفدى، أي أطعم مسكينًا عن كل يوم يفطره، ثم فرض صومه على سبيل الوجوب بعد ذلك[2].

والصدقة كانت بديلًا عن الزكاة، ثم فُرضت الزكاة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ومقادير، بل تُركت لضمائر المؤمنين وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فُرِضت الزكاة ذات النصاب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة الفردية والاجتماعية، فليس من الحكمة إذن فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم، إنما الحكمة بإعدادهم نفسيًا وذهنيًا لتقبلها، وأخذهم بقانون التدرج في تحريمها، حتى إذا جاء الأمر الحاسم كانوا مهيئين فعليًا ووجدانيًا إلى تنفيذه قائلين: سمعنا وأطعنا، ومن أوضح الأمثلة التي تؤكد ذلك تحريم الربا والخمر على

---

١ - الفرقان:٣٢ .

٢ - انظر تفسير ابن كثير ١ \ ٢١٧ .

مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي، حتى نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: "فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ "[1]، وسيأتى تفصيل ذلك فى حينه إن شاء الله تعالى.

وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج، ينبغي أن تُتَّبع في سياسة الناس حتى تقام دولة الإسلام في الأرض، وذلك لأن إقامة مجتمع إسلامي حقيقي لن يتحقق بين يوم وليلة، ومن ثَمَّ فإنه في البداية لابد من الإعداد والتهيئة لذلك، مع الأخذ في الاعتبار سمو الأهداف وكثرة المعوقات، وقد سلك النبي ﷺ هذا المنهج لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية، حيث تركزت مهمته خلال ثلاثة عشر عامًا بمكة في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة وتكاليف الجهاد، ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع وتقنين، بل كانت مرحلة تربية وتكوين، وكان القرآن نفسه فيها يُعنى قبل كل شيء، بتصحيح العقيدة وتثبيتها في النفس والحياة خُلُقًا وعملًا، قبل أن يُعنى بالتشريعات والتفصيلات.

ولهذا بدأ الإسلام أولًا بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة السليمة، ثم كان التشريع شيئًا فشيئًا.

وهكذا نرى أنه قد كمل الدين، وتمت النعمة بمنهج التدرج، الذي نزل به، ولو نزل دفعة واحدة لَشقَّ الأمر على الناس وصَعُب عليهم امتثال أحكامه، وفي هذا درس بليغ للدعاة ليتدرجوا في مناهجهم، ويكونوا عونًا للناس على تطبيقها وامتثالها، وقد تنبه السلف الصالح لهذه الحقيقة حين ساروا على نهج التدرج في مختلف الأمور، حتى وصلوا إلى ما وصلوا

---

١ - انظر .حكمة التشريع الإسلامى للربا: الدكتور/يوسف حامد العالم، ص٦٠ ط١ ، والآية من سورة المائدة:٩١ .

إليه.

وفي قصص القرآن الكريم نرى سنة التدرج ماثلة في منهج دعوة الرسل، وما قصة نوح عليه السلام عنا ببعيدة، حيث دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فما آمن معه إلا قليل، ولكنه صبر واحتمل، ونوّع في أساليب دعوته معتذرًا إلى الله بقوله: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) [1].

وهاهو الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز حينما أراد أن يعود بالحياة إلى هدي الخلفاء الأربعة، وكان له ابن يقال له عبد الملك، فيه فتوة وحماس وحيوية وتقى، فأنكر على أبيه البطء، وعدم الإسراع في إزالة كل بقايا الانحراف والمظالم، حتى تعود الحياة سيرتها الأولي أيام الراشدين، إذ قال له يومًا: (ما لك يا أبت لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي، لو أن القدور غلت بي وبك في الحق"، فكان جواب الأب الفقيه:" لا تعجل يا بنى فإن الله ذمَّ الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة فيكون من ذا فتنة... "[2].

فما بالنا نستعجل استجابة المدعو بعد أول لقاء أو تعارف، وما بالنا نحكم على الناس دون أن نخالطهم أو نصبر عليهم ?، فقد بيّن لنا المولى عز وجل الطريق الصحيح لدعوة الناس إلى عبادته، وهو طريق الحكمة من خلال التدرج بالناس في معرفة التكاليف، والصبر عليهم في

---

[1] - نوح ٥: ٩.

[2] - الموافقات للإمام الشاطبى ٢ \ ٩٤ .

أداء الواجبات، ومن الحكمة أن يفهم الداعي ماذا يريد؟ ثم يحدد هدفه، كما يحدد الوسيلة التي تناسب المدعو، وهذا باختصار يعني وضع الشيء في موضعه الصحيح.

والدعوة أولى من غيرها للعمل بالحكمة، يقول تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [1].

وللوقت دور هام في إحراز النجاح، كما للصبر أثره الفعَّال في شفاء القلوب المريضة.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع القول: إنه طالما أن التدرج سنة إلهية، فلقد وجب على الدعاة اتباعها والعمل بها، حتى لا يقعوا في المحظور وهو التعجل، وفي ذلك يقول عـز شأنه: (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)[2].

فالمرء يتعجل النتائج ويستبطئ إحراز الهدف، وإذا فعل الداعية ذلك فسيكون مثله كمثل الزارع الذي يحصد الثمرة قبل نضجها، فيكون بذلك قد خسر جهدًا بذله في زراعتها، وخسر الثمرة التي قطفها قبل أوان نضجها.

إنَّ فقه التدرُّج باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الله، وهو علم يحتاج إلى فقه كامل بأحكام الدين، وَمن أهم دعائم فقه التدرُّج علم الأولويات، حتى يتسنى للداعية أنْ يعلم من أين يبدأ، وما الذي يجب أنْ يُطبَّق أولًا وإلى ماذا يتدرج منه؟.

ثم لا يكفي أنْ يكون الداعية عالمًا بأحكام الدين، حافظًا لها، عالمًا

---

[1] - النحل ١٢٥ .

[2] - الإسراء ١١

بمقاصد الشريعة الإسلامية ومدركًا لأصولها وفقط، بل يجب عليه كذلك أنْ يُلم بواقع المجتمع، ويدرس ما فيه من طبائع وصفات ويُشخِّص ما فيه من علل وأمراض، حتى يتمكن من علاجها.

ثالثًا:الحكمة من التدرج:

للتدرج حِكَم عديدة أهمها ما يلي:

أولا- موافقة الفطرة:

فالإسلام دين الفطرة، وأحكامه عامة تتفق مع الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، وأسلوبه في التشريع يتفق مع النفوس السليمة والعقول الراجحة في تقبل الأخبار والتكاليف شيئًا فشيئًا وبناء الأشياء والقرارات درجةً درجةً، فهذا سبيل النجاح والفلاح، وصدق الله إذ يقول عز شأنه: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [1].

ثانيًا: التيسير والتخفيف:

إن التدرج في التشريع فيه تيسير لفهم أحكامه على أحسن وجه، وتسهيل لمعرفته حكمًا حكمًا، وهذا ما يلمسه المدقق في نزول الأوامر والنواهي في بداية الإسلام على سنة التدرج مراعاةً للتيسير على الناس والتخفيف عنهم، ورفع الحرج في أخذهم باليسر من التكاليف والأحكام، وصدق الله تعالى إذ يقول: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [2].

والحقيقة أن اليسر وانتفاء الحرج سمة أساسية في الإسلام، والتيسير مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد تضافرت أدلة الكتاب

---

[1] - الروم ٣٠ .

[2] - البقرة ١٨٥ .

والسنة على هذا الأمر، قال تعالى:)هو اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيكُم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْرَاهيمَ...) [1] .

يقول ابن كثير في تفسير تلك الآية: " أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فَشَقَ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة- التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين- تجب في الحَضَر أربعًا وفي السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين وتُصَلى رجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها...وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات" [2].

ورخصة الله تعالى للمسلم المريض أو المسافر الإفطار في شهر رمضان دليل واضح على التيسير على هذه الأمة، كما أن التصريح باقتضاء إرادة الله التخفيف عن المسلمين في قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا) [3]، يؤكد سمة التيسير الفريدة في هذه الشريعة.

وإذا انتقلنا إلى المصدر الثاني للتشريع الإسلامي "السنة النبوية"، سواء من خلال أقواله ﷺ أو أفعاله، وجدنا أن الغرض من التدرج في الأحكام الشرعية هو التيسير على الناس، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (إن هذا الدين يسر، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) [4].

---

[1] - الحج ٧٨ .

[2] - تفسير ابن كثير ٥ ٤٥٥ .

[3] - النساء ٢٨ .

[4] - أخرجه البخاري ١ \ ٦٩ باب الدين يسر عن أبي هريرة .

وفي سيرته العطرة ما يدل على التيسير على المسلمين في شتى المجالات، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: "مَا هَذَا الحَبْلُ؟" قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ) [1].

ومن المعلوم أن من هديه ﷺ أنه " مَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ" [2].

إن المتتبع لسمة اليسر في الشريعة الإسلامية يجد أنها سمة شاملة عامة، فهناك تيسير في معرفة الشريعة وسهولة في إدراك أحكامها ومراميها، ويسر في التكاليف الشرعية من حيث سهولة التنفيذ والعمل، ويسر في أمر الشريعة المكلفين بالتيسير على أنفسهم وعلى غيرهم.

وترجع أسباب حالات التخفيف في الشريعة الإسلامية لأسباب أبرزها: السفر والمرض والإكراه والنسيان والجهل والخطأ والعسر وعموم البلوى...وغير ذلك من الأسباب المفصلة في كتب الفقه الإسلامي وأصوله.

ثالثًا- تغيير العادات:

إن العادات تتحكم في صاحبها، ولهذا لما بُعِث رسول الله إلى الناس كان العرب قد استحكمت بهم عادات فردية وجماعية، مثل عبادة الأصنام، وأكل الميتة، ووأد البنات وقطع الأرحام، وتقديم القرابين للأحجار

---

[1] - أخرجه البخاري ٤ \ ٣٢٤ باب ما يكره من التشديد عن أنس ، ومسلم ٤ \ ١٩٠ عن أنس .

[2] - أخرجه البخاري ١١ \ ٣٩٥ باب صفة النبي ﷺ ، ومسلم ١١ \ ٤٧٢ عن عائشة .

والتماثيل التي تعبد من دون الله وغير ذلك، فاقتضت الحكمة التشريعية أن يتدرج المشرع الحكيم بإبطال العادات السيئة والضارة شيئًا فشيئًا لاقتلاع جذورها، ثم بناء الأحكام والقيم الإسلامية مكانها [1]، وهذا واضح في قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة، حيث قال:

" أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وعدَّد عليه أمور الإسلام، ثم قال: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا" [2].

رابعًا- بناء الفرد قبل بناء المجتمع:

اتجه التشريع الإسلامي أولًا لبناء الفرد السوي بإصلاحه وتغيير ما بنفسه قبل البدء ببناء المجتمع وقبل تغيير الأنظمة والأحكام، والحكمة في هذا التدرج أن الفرد هو الأساس لبناء الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأولى لبناء المجتمع، وعندما تصلح النفوس وتتربى تربية إسلامية كاملة فإنها

---

[1] - انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث . علي محمد محمد الصلابي٣ \ ٣٧١.

[2] - القصة كاملة ذكرها الإمام أحمد في المسند ١ \ ٢٠١ ، وابن خزيمة في صحيحه ٤ \ ١٣ ، وغيرهما عن أم سلمة ،

تتلقى الأحكام الشرعية برحابة صدر وتتجه ذاتيًا إلى تنفيذها وتطبيقها، وهذا ما فعله النبي ﷺ في تربية المسلمين ودعوتهم إلى الالتزام بشريعة الإسلام.

لقد عاش النبي ﷺ جزءًا من حياته قبل البعثة وكان المجتمع آنذاك يعج بكثير من السيئات وفيه بعض القضايا الحسنة التي كان العرب يتعاملون بها بينما كانت السلبيات هي الطاغية عليه، وعلى رأسها عبادة الأصنام والأوثان والأحجار، والتباهي بهذه الآلهة بل والتباكي عندها، وأشد من ذلك أن تبنى مسالك الحياة على عبادة تلك الآلهة كالدعاء وطلب الحاجات، والذبح، والتقديس، وغيرها مما هو سائد في الجاهلية، ناهيك عن بعض السلوكيات التي تأباها فطرة الإنسان فضلًا عن عقله كوأد البنات وغير ذلك.

كان تركيز النبي ﷺ على بناء شخصية المسلم من الأصل وخاصة فيما يتصل بالعقيدة، ولا أدل على ذلك من محاولته مع عمه أبي طالب عند موته: (يا عم قل لا إله إلا الله..أحاجّ لك بها عند الله) [1].

وهذه اللبنة الكبيرة في البناء بل هي أساس البناء كله الذي تقوم عليه الحياة، عبادة الله وحده، وهي في الوقت نفسه تعالج جميع السلبيات التي كانت سائدة وموجودة، فإذا ما بُنيت شخصية الفرد بُني أساس المجتمع لأن الفرد ما هو إلا لبنة من اللبنات التي يتكون منها بناء المجتمع، وهو أسلوب تدريجي ناجح كان له آثار طيبة واضحة في المجتمع الإسلامي المكي والمدني.

---

[1] - أخرجه البخاري ١٢ \ ٢٦٨ باب قصة أبي طالب عن ابن المسيب عن أبيه .

المبحث الثانى
نماذج من مجالات التدرج فى الدعوة الإسلامية

أولًا: التدرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

التدرج في الدعوة أسلوب يدلُّ على حكمة الداعي، وقدرته على التلطف في مخاطبة العقول والأفهام، فينتقل من فكرة إلى فكرة، معتمدًا على المحاكمة العقلية، والحجة المقنعة، والبرهان الواضح.

والمدعو عادة ما يحمل أفكارًا يؤمن بها ويعتقد بصحتها ـ ولو كانت باطلة، فإذا واجهه الداعي بخطئه أنكر دون وعي، ودافع دون هوادة، وهاجم دون بيّنة، فلا يصل الداعي معه إلى نتيجة، اللهم إلا إذا سلك الداعي معه أسلوب التدرج فيما يأمره به، وفيما ينهاه عنه، حتى يلين قلبه وتتهيأ نفسه.

والقرآن الكريم سجّل لنا كثيرًا من وقائع هذا الأسلوب الحكيم، وسأقف هنا عند نموذجين من النماذج القرآنية الواردة في مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومخاطبة المدعوين بأسلوب تدريجي كي يتحقق الاقناع المطلوب:

النموذج الأول: إبراهيم عليه السلام مع قومه:

لقد أرى الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام جمالَ خلق السموات والأرض، من بديع النظام وغريب الصنع، وجلّى له بواطن أمورها وظواهرها ليزداد يقينه بالله تعالى حين يعرف سنته في خلقه وآياته الدالة على ربوبيته، ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين،

وهاهي الآيات تحكي هذا الحوار التدريجي الدعوي حتى يتعلم الدعاة منه ما يفيدهم في دعوتهم:

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ

مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [1].

بالتأمل في هذه الآيات نجد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أراد أن يزيل الغشاوة عن عيون قومه، فيعبدون الله وحده، وينبذون الآلهة المزعومة الأخرى، فرآهم يعبدون كوكب المشتري الذي لا يضرُّ ولا ينفع، فقال مثلما يقولون: " هذا ربّي " وهو موقن أنّه ليس ربًا، لكنّه يريد أن يستدرجهم لسماع حجته على بطلان عبوديتهم لهذا الكوكب، فأوهمهم أنه موافق لهم على زعمهم، فلما غاب هذا الكوكب نقض ربوبيّته، إذ لا ينبغي لإله أن يغيب عن عبيده، لأن غيابه نقص فيه وضعف شديد، وسيبحث العباد عن إله غيره يبقى معهم ويرعاهم، لكنّه لم يقل ابتداء: إن هذا ليس إلهًا، لأنه أراد أن يعرّض بجهل قومه دون أن يستفزّهم، وينبههم إلى ما غاب عنهم من تفكير صحيح وتقدير سليم دون أن يحرّك مشاعر العداء نحوه، فقال: لا أحبُّ الآفلين، وبهذا رمى بذرة الشك في نفوسهم حتى يُعرِّفهم أنهم على باطل.

ثم انتقل عليه السلام في الليلة التالية إلى القمر، فضوءه أسطع، وحجمه حسب ما يرونه أكبر، وهو على هذا الأساس أحقُّ أن يُعبد، فلما غاب هذا أيضًا قال مُسمعًا مَنْ حوله من قومه: لئن لم يهدني ربي ويوفقني لإصابة الحقّ في توحيده فسأكون كبقية الناس ضالًا بعيدًا عن عبادة الله

---

[1] - الأنعام ٧٥: ٧٩.

الحق، وهذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه، إذ أن بذرة الشك قد ازدادت نموًّا في نفوسهم، فالإله الغائب لا يدري حقًا بما يحل بعباده، بل إنّه أصلًا ليس إلهًا.

وحين بزغت الشمس وملأ ضوؤها المكان وخرج الناس إلى أعمالهم، وامتلأت الطرقات بالناس، قال إبراهيم مشيرًا إليها: الذي أراه الآن أن الشمس ربي أليس كذلك، لأنها أكبر من النجم والقمر وأشدُّ تأثيرًا، فلما غابت كعادتها قال كلمته التي يريدها دون أن يخاف ردّة فعلهم الشديدة، فغياب الشمس أشدُّ وحشة من غياب المشتري والقمر، والظلمة بعد النور الساطع أشدُّ وأقسى من الظلمة بعد الضوء الخفيف، ولهذا قال: يا قوم إني بريء مما تشركون.

وهكذا.. حاور إبراهيم عليه السلام قومه وتلطف في القول، وأرخى لخصمه العِنان حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجه، وأحسن طريق، متبرئًا من تلك المعبودات التي جعلوها أربابًا وآلهة مع الله، وبعد أن تبرّأ من معبوداتهم وترك في نفوسهم الشك فيها، أعلن اتجاهه إلى الله تعالى وحده، ثم تبرّأ من المشركين أنفسهم، معلنًا أنه لا يستحق العبودية إلا الله عز وجل [1]، سالكًا في ذلك أسلوب التدرج، ومن ثم استطاع عليه السلام أن يصل بهذا الأسلوب إلى ما يريد.

النموذج الثاني:موسى عليه السلام والخضر:

قصة موسى عليه السلام مع الخضر ذُكِرت في سورة واحدة في القرآن الكريم، وهي سورة الكهف (الآيات من ٦٥: ٨٢).

والآيات تبين أن موسى عليه السلام كان يظن- لكونه نبيَّ عصره- أنه

---

[1] - انظر الكشاف للزمخشري ٢\ ١٣٧ وغيره من كتب التفسير .

أعلم أهل الأرض في زمانه، فلما قيل له: إن الرجل الصالح "الخضر " أكثر منه علمًا أراد أن يلقاه فيتعلم منه، إلا أن الخضر اعتذر إليه، وبين له أنه لا يمكنه مصاحبته، لأنه سيقوم بأعمال يعترض عليها موسى عليه السلام لأن ظاهرها غير مقبول عقلًا، والخضر ليس عنده استعداد في أن يشرح له كل ما يفعله، لكنَّ موسى عليه السلام أصرَّ على صحبته والاستفادة منه، وتعهّد أنّه لن يعترض إلّا أن يشرح له الخضر نفسه في الوقت الذي يريد، فلما انطلقا، وركبا في السفينة، وخرقها الخضر قبل أن ينزل، اعترض موسى عليه السلام على هذا العمل الغريب، إذ كيف نجزي أهل الخير شرًا؟!! ذكَّره الخضر قائلًا:

" أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا " أجابه موسى عليه السلام: " لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا " وحين قتل الخضرُ الولدَ اعترض سيدنا موسى، لأنه عمل منكر لا يفعله المسلم، ذكّره الخضر، فزاد لفظ " لك " في الجملة التالية " أَلَمْ أَقُلْ لك إنّك لن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا "؟ أجابه موسى، وقد شعر بالحرج هذه المرّة:" إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا " وحين دخلا قرية بخيلة لم يستضفهما أهلها، ورغم ذلك أقام الخضر لهم جدارًا مائلًا كاد أن يقع، فقال موسى " لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا " وهنا كان من حقِّ الخضر أن يفارق موسى، وعلى موسى أن يرضى الفراق لأنّه لم يستطع الالتزام بالسكوت، فافترقا بعد أن قص الخضر عليه أسباب أفعاله السابقة [1].

وهكذا.. استخدم الخضر عليه السلام أسلوب التدرج في جوابه كل مرّة

---

[1] - انظر معنى الآيات في ابن كثير ٥ \ ١٨٢ وما بعدها ، وتفسير الفخر الرازي ١٠ \ ٢٣٦ وما بعدها ، وانظر غيرهما من كتب التفسير .

بما فيه من عتاب، واستخدمه موسى عليه السلام في إيجاباته عقب كل حادثة بما فيه من إقرار، وما ذلك إلا لأهمية هذا الأسلوب في إفهام المخاطب وإقناعه.

ثانيًا: التدرج في طلب العلم:

من المجالات التي يتأكد فيها التدرج مجال طلب العلم، فإن العلم بمثابة بحر عميق من أراد أن يصل إلى قاعه لابد أن يكون ذلك عن طريق التدرج حتى لا يهلك، ولذا نبَّه أهل العلم على ضرورة التدرج في طلبه، وأخذه جرعة جرعة، قال ابن القيم رحمه الله في معرض حديثه عن تشبيه النبي ﷺ للعالِم بالقمر في قوله ﷺ:(وفضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) [1]، قال رحمه الله:

"فيه أيضا تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يُربِّى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصال الغذاء إليه فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة الى آبائهم " [2] .

ويُستنبط من الحديث الشريف تدرج العالِم في طلب العلم كما يتدرج القمر في منازله.

وقد نقل الإمام البغوى رحمه الله تعالى عن المبرد فى تفسير قوله تعالى: (... وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) [3]، قوله: " هم أرباب العلم سموا به لأنهم يحرصون على العلم

---

[1] - أخرجه أبو داود فى سننه ٣ / ٣٥٤ كتاب الحث على طلب العلم عن أبى الدرداء ، والترمذى في سننه ٥ / ٥٠ كتاب فضل الفقه على العبادة من حديث أبى أمامة الباهلى .

[2] - مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ / ٦٦ .

[3] - آل عمران ٧٩ .

ويقومون به ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها" [1]

ومما سبق نستخلص أن العلم الذي يحصل عليه الطالب من غير تدرج لا يبقى بل يذهب منه أدراج الرياح، لأن شجرة العلم عند ذلك المستعجل تنمو نموًا غير طبيعي، فهي وإن كانت شامخة في الفضاء إلا أنها تفتقر إلى الجذور التي تثبتها فتستقر، ولذا لا تلبث أن تتهاوى إذا هبت عليها الرياح، ولذا جاء في الأثر: "من أخذ العلم جملة ذهب منه جملة" [2].

ثالثًا: التدرج في التربية:

التربية أصلًا بمعنى التنشئة التي فيها التدرج، وقد أتى الشرع الكريم بما يؤكد على أن التربية تحتاج إلى تدرج بالمربَّى، فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ: "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع"[3].

ففي هذا الحديث مراعاة مرحلة الصغير، فإنه قبل السابعة لا يميز فلا يؤمَر بالصلاة فإذا بلغ السابعة أُمِرِ بالصلاة أمرًا شفهيًا وأُمهِل حتى العاشرة فإن لم يصل فإنه يُؤدَّب بالضرب، فلم يبدأ النبي ﷺ بالأمر بضربه بل جعل الكلام اللين مقدَّمًا على التأديب بالجلد، وهذا تدرج في التربية مهم

---

[1] - تفسير البغوى ١ / ٥٩ .

[2] - المصنف لعبد الرزاق ١٢\ ٣٢٥ .

[3] - أخرجه أبو داود ٣٣٤/١: كتاب الصلاة: باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث "٤٩٥"، وأحمد ١٨٧/٢، والدار قطني ٢٣/١": كتاب الصلاة:. باب الأمر بتعليم الصلوات والضرب عليها، حديث "٢، ٣، والحاكم "١٩٧/١"، وابن أبي شيبة ٣٤/١"، والدولابي في الكنى"١٥٩/١، والعقيلي في "الضعفاء" "١٦٧/٢- ١٦٨"، وأبو نعيم في "الحلية" "١ ٢٦/٠ ، وقال الترمذي: حسن صحيح .. انظر تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر ط دار الكتب العلمية ط١ ١٤١٩هـ .١٩٨٩م.

جدًا.

وفي تأديب النساء أيضا أمر الله تعالى بالتدرج قال عز شأنه: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) [1].

فالله تعالى أمر المسلمين هنا باستخدام أسلوب التدرج في تأديب الزوجة الناشز، فالمرحلة الأولى هي وعظها وإرشادها، فإن أقلعت وإلا انتقل الزوج إلى المرحلة الثانية وهي هجرها في المضاجع، فإن أقلعت وإلا ضربها ضربا غير مبرح [2]، ولا شك في أن هذا الأسلوب إذا تم وفق المنهج الشرعي الصحيح سوف يحدث أثرًا إيجابيًا في التربية لأنه من تشريع علَّام الغيوب سبحانه وتعالى.

رابعًا: التدرج في إصلاح المجتمع:

من العيوب التي يُبتلى بها كثير من المصلحين تجاهل سنة الله الكونية القاضية بالتدرج في إصلاح المجتمع وتهذيبه، وذلك لأن الرغبة العارمة والحماس المتدفق لا يكفي لتغيير حقيقي يبقى أثره ويستمر نفعه، فلابد إذن للمصلح أن يعلم أن للإصلاح سلَّم يجب أن يرتقى درجة درجة وإلا سقط السلَّم بمن يصعد عليه، ولهذا جعل النبي ﷺ تغيير المنكر على مراتب ليتدرج فيها المسلمون كل حسب استطاعته وقدرته فقال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" [3].

---

[1] - النساء: ٣٤.

[2] - انظر على سبيل المثال تفسير الطبرى ٤ / ٥٦ ، وابن كثير ١/ ٦٥٣ . .

[3] - أخرجه مسلم ١ / ٦٩ .باب بيان كون النهى عن المنكر .. الخ من حديث أبى بكر .

وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها "ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم، فقالت يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم قال " لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت " [1] .

فقد أخبر النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها هنا أن الناس أو بعضهم لم يبلغوا المرحلة التي يقبلون فيها هذا الأمر، وهو إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ولهذا تركه النبي ﷺ مراعاة للتدرج في التغيير والإصلاح، وهذا الأسلوب له أهميته وأثره في إصلاح المجتمعات.

خامسًا: التدرج في الحوار والمناظرة:

من المجالات التي يحسن فيها التدرج "الحوار والمناظرة "، فقد حكى الله تعالى لنا في القرآن عن إبراهيم عليه السلام مناظرته الشهيرة مع النمروذ بن كنعان قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [2].

عن السدي قال: "لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على المِلك ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلَّمه وقال له: من ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت! قال نمروذ: أنا أحيي وأميت! أنا أُدخل أربعة نفر بيتا فلا يطعمون ولا يسقون حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا وتركت اثنين فماتا فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك

---

[1] - أخرجه البخارى ٥ \ ٤٩٣ باب فضل مكة وبنيانها عن عائشة ، ومسلم ٧ \ ٢٦ باب نقض الكعبة وبنائها عن عائشة .

[2] - البقرة: ٢٥٨.

قال له إبراهيم: فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب! فبهت الذي كفر" [1].

فقد تدرج إبراهيم عليه السلام مع ذاك الطاغية في الحوار، وألقى له أولًا الحجة الأولى "ربي الذي يحيي ويميت" فتحايل النمروذ عليها، فأتاه بالحجة الثانية التي بهتته وأفحمته "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب " فكانت النتيجة، وهي هزيمة النمروذ وبطلان ادِّعائه بالألوهية، وإثبات صدق إبراهيم عليه السلام في أن الإله واحد وهو الله عز وجل.

وكذا تدرج النبي ﷺ في الحوار مع كثير من مشركي قومه حتى ألزمهم الحجة، ومن ذلك هذا الحوار المتأني عن عمران بن الحصين قال قال رسول الله ﷺ لأبي: " كم تعبد اليوم إلهًا، قال أبي: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء قال:فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك قال: الذي في السماء قال: يا حصين أما إنك إن أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك قال: فلما أسلم حصين أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي " [2].

فانظر كيف أوصل النبي ﷺ الحق إلى قلب هذا الرجل الذي كان على الشرك، فقد استدرجه استدراجًا وتدرج معه تدرجًا حكيمًا حتى أقام عليه الحجة، سأله أولًا عن معبوده، ثم بين له أن من الضلال إشراك من لا يرجوه لرغبته ورهبته مع من يرجوه لرغبته ورهبته، وقد أدار الحوار

---

[1] - انظر تفسير الطبرى ٥ / ٤٢٥

[2] - أخرجه الترمذي ١١ \ ٣٨٧ ، والطبرانى فى المعجم الأوسط ٢ / ٢٨٠ عن عمران بن حصين.

بلغة السؤال فكانت الأسئلة ترد شيئًا فشيئًا كأنها خطوات يخطوها النبي ﷺ بالمسؤول ليوصله إلى النتيجة التي أدت إلى إيمانه.

سادسًا: التدرج فى نزول الأحكام الشرعية وعرضها على المدعوين:

١- التدرُّج في فرض بعض الشعائر مثل:

أ- الصلاة:

لقد شُرعت الصلاة على مراحل تدريجية، حيث شُرعت في البدء صلاة بالغداة وأخرى بالعشي، فلما أَلِفوها شُرعت خمس صلوات في اليوم والليلة، ركعتين ركعتين، ما عدا المغرب، ثم أُقرَّت في السفر وزيدت في الحضر إلى أربع في الظهر والعصر والعشاء، فقد ورد عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين قالت: " فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر"[١].

وقد أجمع العلماء أن الصلوات الخمس إنما فرضت ليلة الإسراء [٢].

ب- الصيام:

لقد كان فرض الصيام على مرحلتين:

الأولى: إيجابه على التخيير فكان من شاء صام ومن شاء أفطر ولو كان قادرًا صحيحًا مقيمًا وأطعم عن كل يوم مسكينًا.

والثانية: وجوب الصيام على القادر الصحيح المقيم. وكان الناس يتناولون طعامهم وشرابهم إذا غربت الشمس ما لم يناموا، ومن نام قبل أن

---

١ - أخرجه البخاري في صحيحه ٢ \ ٨١ باب كيف فرضت الصلاة في الاسراء عن عائشة ، ومسلم ٣ \ ٤٥٩ باب صلاة السفر وقصرها عن عائشة .

٢ - انظر التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر ط مؤسسة القرطبة ٨ \ ٣٣

يطعم ويشرب حُرِّم عليه الطعام والشراب إلى الليلة المقبلة [١].

وجاء عن الأحناف والمالكية وبعض الشافعية: أن أول ما فُرِض صيام عاشوراء، ثم ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخ ذلك بصوم رمضان بالإمساك كل يوم وليلة من بعد النوم إلى غروب الشمس، ثم نسخ ذلك بآية: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)[٢].

٢- التدرُّج في تحريم بعض العادات، مثل:

أ- تحريم الخمر:

لقد نزل تحريم الخمر على أربع مراحل:

فكان أول ما نزل في شأنها قوله تعالى: (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [٣]، حيث بيَّنت هذه الآية أنَّ ثمرات النخيل ـ أي التمر ـ قد يكون منها الرزق الحسن وقد يكون منها الخمر، فأشار الله تعالى إلى أنَّ السكر ليس من الرزق الحسن لأنه فرَّق بينهما.

ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى:(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) [٤]، فبيَّنت أنَّ ضرر الخمر والميسر أشد من نفعهما، وعند ذلك بدأ بعض الصحابة يتركون الخمر.

ثم نزل قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ) [٥] .

---

١ - راجع: فقه الصيام في الإسلام: للدكتور/أحمد مصطفى سليمان، ص٨٧ الطبعة الأولى،

٣ - انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني الحنفي ١٦ \ ٢٢٣ .

٣ - النحل ٦٧.

٤ - البقرة ٢١٩

٥ - النساء ٤٣ .

حيث أمرتهم هذه الآية بعدم الاقتراب من الصلاة إذا كانوا سكارى، فأصبحوا لا يشربون الخمر إلَّا في الليل، وبذلك قلَّل الله تعالى كمية الخمر التي كانوا يشربونها في اليوم.

ثم بعد ذلك نزل قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) [1].

وبهذه الآية حُرِّمت الخمر تحريمًا نهائيًا، وقد التزم المسلمون بذلك الحكم بنفس راضية بسبب هذا الأسلوب التدريجي.

ب- تحريم الربا:

لقد كان أول ما نزل في شأن الربا قوله تعالى: (وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) [2] ، حيث بيَّنت الآية أنَّ الربا لا يزيد عند الله ولا يعطي فيه ثوابًا، وأما الزكاة فإنَّ الله يضاعف لصاحبها الثواب.

ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى: (فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا.وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [3]، حيث وضَّحت هذه الآية أنَّ اليهود حرَّم الله تعالى عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم لأنهم ظلموا وصدوا عن سبيل الله وأكلوا الربا وقد نُهوا عنه وأكلوا أموال الناس

---

١ - المائدة ٩٠ ، ٩١

٢ - الروم ٣٩ .

٣ - النساء ١٦٠، ١٦٢ .

بالباطل، كما بيَّنت الآية أنَّ الربا كان محرَّمًا على اليهود، وهو مما يمقته الله تعالى، لذلك فعله يوجب العقاب والغضب من الله تعالى، ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[1]، فجاء في هذه الآيات النهي الصريح عن التعامل بالربا، ثم نزل قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ"[2] وقد توعد الله فيها الذين لا يتركون الربا بالعذاب الشديد والحرب والغضب منه تعالى[3].

وهكذا تبين من خلال الأحكام السابقة أن الله تعالى استخدم أسلوب التدرج في نزول هذه الأحكام التشريعية حتى تتهيأ النفوس لِتقَبُّلِها والعمل بها، وهو سبحانه وتعالى يعلم ما يوافق الإنسان وما يلائمه، ومن هنا كان لأسلوب التدرج أهميته في الدعوة والارشاد، بل لابد من استخدامه كي يتحقق الاقناع.

٣- التدرج في إنزال بعض العقوبات:

من حكمة الله عز وجل أنه لم ينزل معظم العقوبات الخاصة ببعض المحرمات الشرعية دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك على مراحل تدريجية كي تتفق مع طبيعة الإنسان، وهو وحده سبحانه الذي يعلم كيف ينصلح حال العبد إذا انحرف وضل عن الفطرة السوية التي خلق الله الناس عليها، وتوضيحا لهذا الأمر أضرب هنا مثالًا على ذلك، ألا وهو " التدرج في

---

١ -آل عمران ١٣٠ .

٢ - البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

٣ - انظر: كتاب حكمة التشريع الإسلامي في تحريم الربا:الدكتور/يوسف حامد العالم، ص ٦٠.

إنزال عقوبة الزنا "

إن الزنا لم يكن في يوم من الأيام مباحًا منذ أن خلق الله تعالى الخليقة؛ بل جميع الشرائع جاءت بتحريمه، ولذلك قال الله تعالى عن مريم عليها السلام عندما جاءت بعيسى إلى قومها حكاية عنهم :(قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا* يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) [1]، فجعلوا ذلك أمرًا عظيمًا ومنكرًا .

وقد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول، وكان قبيحًا عند العرب قبل البعثة فلم يكن يرتكب الزنا إلا أراذل الناس من الإماء والعبيد، ولذلك لما بايعت هند بنت عتبه رضي الله عنها، النبي ﷺ قال عليه الصلاة والسلام في البيعة :" ولا يزنين، قالت: أو تزني الحر.. " [2]، وهذا دليل على أنه أمر مستنكر مستقبح حتى في الجاهلية وجاء الإسلام وشدَّد على حرمته فكان النبي ﷺ يبايع النساء على قوله تعالى) :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[3].

وقال سبحانه :(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا* وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ

---

١ - مريم ٢٧ ، ٢٨.

٢ - ذكره ابن الأثير في جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٢ \ ٩٩٣ ، وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٨ \ ١٩٤ عن عائشة .

٣ - الممتحنة ١٢ .

كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا)[1]، وقال عز وجل: (لا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)[2] .

وقال في صفات عباد الرحمن : (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانا)[3].

وقال عن المؤمنين: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)[4] .

والأدلة من الكتاب والسنة متضافرة على تحريمه مطلقا من أول وهلة، إلا أن الله تعالى لم يحرم الزنا على مراحل مثلما حرم الخمر.. فقد تدرج الشارع في تحريم الخمر على عدة مراحل ولم يتدرج في تحريم الزنا لعظم قبحه وفحشه وكثرة أضراره وعواقبه، وإنما كان التدرج في إنزال العقوبة بفاعله، فكان في أول الأمر عقوبة الزنا بالإيذاء والتوبيخ والتعنيف بقول الله سبحانه وتعالى:(وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا[5])، ثم تدرج الحكم من ذلك إلى الحبس في البيوت بقول الله تعالى : (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)[6] .

---

١ - النساء ١٥ ، ١٦.

٢ - الاسراء ٣٢ .

٣ - الفرقان ٥٨ ، ٥٩ .

٤ - المعارج ٢٩ ، ٣٠ .

٥ - النساء ١٣.

٦ - النساء ١٥ .

ثم استقر الأمر وجعل السبيل فجعل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة والرجم للثيب حتى يموت، وكان هذا التدرج ليرتقي بالمجتمع، ويأخذ به إلى العفاف والطهر، وحتى لا يشق على الناس هذا الانتقال فلا يكون عليهم في الدين حرج، ولذلك قال النبي ﷺ كما في حديث عبادة بن الصامت :(خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) [1] .

وقد ذكر صاحب كتاب فقه السنة: أن كثيرًا من الفقهاء يرون أن تقرير عقوبة الزنا كانت متدرجة كما حدث في تحريم الخمر، وكما حصل في تشريع الصيام، فكانت العقوبة أولًا بالإيذاء ثم الحبس ثم استقرت العقوبة الأخيرة التي هي الجلد مع النفي للبكر والرجم للثيب، وكان هذا التدرج ليرتقي بالمجتمع، ويأخذ به في رفق وهوادة إلى العفاف والطهر، وحتى لا يشق على الناس هذا الانتقال، فلا يكون عليهم في الدين حرج [2].

وهكذا.. الآيات السابقة في شأن جريمة الزنا لا تدل- كما أشرنا _ على التدرج في التحريم، وإنما تدل على التدرج في العقوبة، وأما التحريم فهو أمر مقطوع به من أول الأمر، بخلاف الخمر وبخلاف فرضية الصيام.

---

١ - أخرجه مسلم في صحيحه ٩ \ ٥٨ باب حد الزنا عن ، وابن ماجه في سننه ٧ \ ٤٤٧ ، والدارمي في سننه ٢ \ ٢٣٦ عن عبادة بن الصامت.

٢ - انظر فقه السنة لسيد سابق ٢ \ ٤٠٤

المبحث الثالث

أثر أسلوب التدرج في إقناع المدعوين

أولًا: تسهيل الانقياد والامتثال:

لقد جاء القرآن في مجتمع حافل بالشرك والجهل، وكان أهله يتخبطون في ظلمات الضلال والفساد، وبالتالي لم يكن إخراجهم من هذه الحياة وهذا الواقع إلى نور الإسلام بالأمر السهل، ومن ثمَّ راعى التشريع الإسلامي ذلك، فنزلت التشريعات متدرجة حتى يسهل انقيادهم للحق ويمتثلون الإسلام دينًا ودولة.

يقول الأستاذ مصطفى شلبي في ذلك: "والحكمة في ذلك التدرُّج أن هذا النوع من التشريع يكون أقرب إلى القبول والامتثال، خصوصًا مع أولئك العرب الذين كانوا في إباحية مطلقة تجعلهم ينفرون من التكليف بالجملة"[1].

فلو جاءتهم الأحكام جملة واحدة لثقلت عليهم وما انقادوا لها، لأنه من العسير إخراج مثل هؤلاء القوم بين يوم وليلة من حياة إلى حياة أخرى مختلفة تمامًا عن الحياة التي ألفوها واعتادوا عليها وانطبعت في نفوسهم، ولذلك جاء القرآن أولًا بالدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله، وأنَّ الله هو المتصرف في هذا الكون ولا أحد غيره، وأن الأصنام التي تُعبد من دونه لا تغني شيئًا، ولما وجدت هذه العقيدة موضعًا في قلوبهم، وآمنوا بها، أنزل الله تعالى التشريعات الأخرى تشريعًا بعد الآخر، وكلما اعتادوا على حكم وألفوه وانقادوا له أنزل الله حكمًا آخر، فانقادوا إلى الإسلام وخرجوا من حياة الجاهلية إلى حياة تهتدي بأنوار الحق وهم لا يشعرون، فكان نزول التشريع بالتدرج أسهل عليهم في التكليف.

---

١ - المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي: مصطفى شلبي، ص ٧٥.

يقول الإمام النسيابوي بعد أنْ ذكر عددًا من فوائد نزول القرآن منجمًا -: "إنَّ نزول الشرائع مُدرجة أسهل على المكلف منها دفعة واحدة" [١].

فنزول الشرائع جملة واحدة فيه حرج على المكلَّف وصعوبة في الامتثال، لكثرة التكاليف التي تكون عليه.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ مصطفى المراغي فقال: "إنه لو نزل جملة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة عليهم، ولا يخفى ما في ذلك من حرج عليهم بكثرة التكاليف مرة واحدة، ولكن بإنزاله مُنجَّمًا جاء التشريع رويدًا رويدًا فكان احتمالهم له أيسر ومرانهم عليه أسهل" [٢].

ويؤكد الإمام القرطبي على ذلك فيقول في معنى قوله تعالى "وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا"[٣] " أي أنزلناه نجمًا بعد نجم، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا" [٤].

وهكذا..نزول الأحكام دفعة واحدة فيه تنفير للناس، لأنها تكلفهم ما لا يستطيعون تحمله، وفي امتثالهم لها عنت ومشقة، لأنَّ الإنسان إذا كان في حياة بعيدة عن التديُّن واعتادت نفسه عليها لا يستطيع أنْ يخرج منها إلى حياة أخرى ويمتثل تشاريع أخرى جديدة بين يوم وليلة لا سيما بعد أن أَلِفَها وانقاد إليها فترة من الزمن، هذا بالإضافة إلى أنَّ امتثال تكاليف جديدة جملة واحدة تتكاثر عليه ولا يستطيع أنْ يؤديها على وجهها المراد، بخلاف ما إذا كُلِّف بحكم واحد أو اثنين ثم إذا اعتاد عليهما وأتقنهما كُلِّف

---

١ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابوري، الطبعة الاولى، ١٢/١٩.

٢ - تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، الطبعه الخامسة، ١٣/١٩.

٣ - الاسراء ١٠٦ .

٤ - الاسراء ١٠٦ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٣٤٠/١٠.

بحكم آخر.

يقول الإمام الشاطبي: "فلو نزلت " أي الأحكام " دفعة واحدة لتكاثرت التكاليف على المكلَّف فلم يكن لينقاد إليها انقياده إلى الحكم الواحد أو الاثنين"[١].

ولما كان الله سبحانه وتعالى هو وحده العالم بأحوال البشر، وطباعهم وصفاتهم، أنزل هذا القرآن وراعى فيه هذه الطبائع، فلم يكلفهم ما لا يستطيعون تحمله، أو يشق عليهم.

ثانيا: معالجة العادات المستحكمة:

هنالك بعض العادات السيئة التي إذا ألفها الإنسان واعتاد عليها واستحكمت في نفسه، لا يمكن تغيرها إلَّا بنوع مخصوص من أنواع العلاج وهو جعل الإنسان يتخلى عنها رويدًا رويدًا.

وقد جاء الإسلام إلى مكة، وكان أهلها قد استحكمت فيهم عادات وأعراف لم يكن من السهل نهيهم عنها جملة، لذلك تدرَّج بهم حتى تخلصوا منها، فكان التدرُّج هو العلاج الناجع لهذه الأمراض.

ومن أمثلة هذه العادات التي استحكمت عند العرب وأراد الشارع التخلص منها ما يلي:

١- شرب الخمر: فقد اعتاد العرب على شربها، وأصبحت جزءًا من حياتهم- كما سبق- يشربونها في الصباح والمساء ولا يستطيعون تركها أبدًا، وكانت مصدر رزق للكثيرين منهم، وهذه الحالة التي بلغها العرب في شرب الخمر هي ما يسميها الأطباء اليوم بالإدمان، ومن آثار هذا الإدمان أن المدمن لا يستطيع أنْ يتخلى عن هذا الشراب الذي أدمنه فجأة

---

٤ - الموافقات: للشاطبي ٩٢٩/٣.

وجملة واحدة؛ لأنَّ خلايا جسمه قد تعودت عليه، ولا تتحمل تركه بهذه السرعة، وإذا تركه بهذه الطريقة فإنه يؤدي إلى اختلال في حياة الفرد.

يقول الدكتور/محمد علي البار في معنى الإدمان: "هو أنْ يتعود شخص ما على عقار معين بحيث تتعود خلايا جسمه على هذا العقار، ولو سحب هذا العقار فجأة لأدَّى إلى ظهور تغيُّرات نفسية وجسدية، ولذا يضطر متعاطي هذا العقار إلى البحث عنه بكل وسيلة ولو أدَّى ذلك إلى تحطيم حياته كلها، بحيث لا يصبح له همٌّ ولا فكر إلا في كيفية الحصول عليه واستعماله"[١].

فلم تكن طبيعة العرب في الجزيرة العربية تسمح بالتخلي عن شرب الخمر مرة واحدة، لأنه تكليف فيه عسر شديد وقد يخرج عن استطاعة بعضهم، فلا يمكن تنفيذه إلَّا بالطريقة التي عالج بها القرآن هذا الأمر وهي طريقة التدرُّج بهم في التخلص منه، وفي ذلك يقول الأستاذ/محمد المبارك في رسالته الخاصة بالخمر والميسر: "والسبب في هذا التدرُّج في التكليف بترك الخمر أنَّ الناس كانوا مدمنين شربها، قد ألفوه وصار عادة من عاداتهم، وتكيفت به أمزجتهم، وكان صنعها والاتجار فيها مورد رزق عظيم لبعضهم، فلو فوجئوا بتحريمها دفعة واحدة لشق عليهم ترك ما ألفوه، ولاستثقلوا التكليف به، وأوشك أنْ يخالفه أكثرهم ويصرفهم عن قبول الدعوة ويحجب عنهم محاسن الإسلام"[٢].

إنَّ القرآن بدأ أولًا في تثبيت الإيمان الذي يساعد كثيرًا في امتثال الأوامر وتنفيذها، وكانت هذه المرحلة الأولى في تغيير المجتمع الجاهلي.

---

١ - الخمر بين الطب والفقه: للدكتور/محمد علي البار ، الطبعة الخامسة، ص ٨٧.

٢ - رسالة عن الخمر والميسر والسباق والوحدة الاسلامية: لمحمد المبارك، ص ١١.

ثم بعد ذلك بدأ القرآن يتطرق إلى معالجة العادات السيئة التي كانت مستحكمة في المجتمع وعلي رأسها عادة شرب الخمر، فنبَّه أولًا على أنها ليست من الرزق الحسن، وأنَّ منافعها أقل من مضارها، ثم بعد ذلك قلَّل لهم من أوقات شربها بأنْ نهاهم عن الإتيان إلى الصلاة وهم سكارى؛ فأصبحوا لا يشربونها إلَّا في المساء، ثم بعد هذه التهيئة الكاملة نزل التحريم النهائي كما سبق، فكان أدعى للامتثال وأقرب إلى التنفيذ. وعندما نزل التحريم النهائي للخمر ما كان من الصحابة إلَّا أنْ أراقوها في الطرقات وحطموا أوانيها التي كانت تصنع فيها، وقد كان بعضهم عندما نزل تحريم الخمر يشربونها، فلما أتاهم المنادي بأنَّ الخمر قد حرمت وضعوا الكؤوس من أيديهم وقال بعضهم: "انتهينا انتهينا" امتثالا لقول الله عز وجل في ختام آية تحريم الخمر" فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ " [1].

٢- الطيرة:

وهي عادة جاهلية قديمة ملخصها أن المشرك إذا أراد السفر بكّر إلى أوكار الطير فهيَّجها، فإن ذهبت عن يمينه تيامن واستبشر ومضى في سفره، وإن ذهبت عن شماله تشاءم، وردَّه ذلك عن إمضاء أمره، ثم أُطلِق اللفظ على كل أمر يتوهم أنه سبب في لحاق الشر والضر فأصبح مرادفًا للتشاؤم، كالتشاؤم برؤية الأعمى، أو النعل المقلوب، وغير ذلك من الخرافات التي لا تليق بالمسلم.

وعادة التطير عادة قديمة، استخدمها أعداء الرسل في رد دعوة الحق والهدى بدعوى أنها سبب لحلول المصائب والبلايا، فقد تشاءم قوم صالح

---

١ - راجع: مختصر تفسير ابن كثير، طبعة دار القرآن الكريم، بيروت، ١/ ٥٤٦ ، والآية من سورة المائدة ٩١ .

بنبيهم – عليه السلام – حيث قالوا له: (اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ) [1]، أي تشاءمنا بك وبمن اتبعك،

وتطيّر فرعونُ وقومه بموسى – عليه السلام – ومن معه، قال تعالى: (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ) [2]، وتطير أصحاب القرية برسل الله عز وجل حيث قالوا لهم: (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) [3]

حينما عالج الإسلام هذه العادة عالجها على مراحل متدرجة حتى تتهيأ النفوس لتقبل الحكم، حيث بين الله تعالى بداية أن ما حلَّ بهم من شر وبلاء إنما هو بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم، ولا يخرج عن قضاء الله وحكمته وعدله، فقال عز شأنه: (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[4] ، ثم بعد ذلك جاء النبي ﷺ ليقف موقفًا حاسمًا من هذه العادة ونفى وجود أي تأثير لحركة الطير في فعل الإنسان سلبًا أو إيجابًا، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا طيرة)[5] ، أي: لا حقيقة لما يعتقده المشركون من أن لحركة الطير تأثيرًا، فكل ذلك من خرافات الجاهلية وأوهامها، ثم بيّن ﷺ أن التطير نوع من الشرك، فقال: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، ولكن الله يذهبه بالتوكل) [6]، وأخيرًا بيّن ﷺ أن التطير ليس من أخلاق أهل

---

١ - النمل ٤٧ .

٢ - الأعراف ١٣١ .

٣ - يس ١٨ .

٤ - الأعراف: ١٣١ .

٥ - أخرجه البخاري ١٨ \ ٤١ باب الطيرة عن أبي هريرة ، ومسلم ١١ \ ٢٥٧ باب الطيرة والفأل عن أبي هريرة .

٦ - أخرجه الامام أحمد بالمسند ٧ \ ٢٥٠ عن ابن مسعود ، وابن حبان في صحيحه ١٢ \

الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: (ليس منا من تَطيَّر ولا تُطيِّر له ولا تَكهَّن ولا تُكهِّن له)[1].

ومن خلال هذه المراحل التدريجية التي نهى رسول الله ﷺ فيها عن تلك العادة عرف الناس أن الطِّيَرة تُفسد القلب بتعلقه بغير الله، وتُضعف يقين العبد بربه، وتفتح أبواب الخوف من المخلوق، ولا يخفى أثر ذلك على توحيد المرء وإيمانه.

إنَّ هذا المنهج هو المنهج الذي ينبغي أنْ يُتبع في جميع الأحوال التي يراد فيها تغيير عادات مستحكمة في المجتمع، ومن سلك غيره فإنَّه قد لا يصل إلى مراده أبدًا، وخير مثال على ذلك محاولة الحكومة الأمريكية في منع شرب الخمر ومحاربتها عام ١٩٣٠ م، فقد استُخْدمت جميع وسائل الإعلام الحديثة كالمجلات والصحف والمحاضرات والصور والأفلام السينمائية لتهجين شرب الخمر وبيان مضارها ومفاسدها، وقد قدِّر ما أنفقته الدولة في هذه الحملة ضد الخمر ما يزيد على ستين مليون دولار في ذلك الوقت، وقُدِّر ما نشر من الكتب والنشرات إلى عشرة ملايين صفحة، واستمرت محاولة تنفيذ القانون الخاص بتحريم الخمر حينئذ أربعة عشر عامًا، أُعدم فيها ما يقارب ثلاثمائة، وسُجِنَ أكثر من نصف مليون نفس، وكثرت فيها الغرامات والمصادرات للأملاك لردع الناس عن الخمر، ورغم كل هذا الجهد لم يُجْدِ نفعًا، بل زاد من تعلُّق الأمريكيين بالخمر، حتى اضطرت الحكومة الأمريكية في سنة ١٩٣٣ م إلى سحب

---

٤٩١ باب ذكر التغليظ على من تطير.

١ -أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٨ \ ١٦٢ عن عمران بن حصين .

هذا القانون وإباحة الخمر مرة أخرى إباحة مطلقة [1].

ثالثا: تهيئة النفوس للسماع:

بالتدرج في الدعوة تتهيأ النفوس للسماع، فالحجة لا تقوم على المدعوين إلا بالسماع، ولذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإجارة المستجير من المشركين لأن إجارته تهيئة لنفسه للسماع، فقال تعالى: "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ " [2] .فأوجب سبحانه كف القتال عمن أظهر الرغبة في سماع كلام الله، بل جعل الغاية من إجارته إسماعه كلام الله ليكون كلام الله أول ما يقرع سمعه فيقع من نفسه موقع التمكن، وبذلك تقوم عليه الحجة.

فلا ضير إذن من إعطاء المشركين الفرصة لكي تتهيأ نفوسهم لسماع القرآن ومعرفة هذا الدين، لعل قلوبهم تتفتح وتتلقى وتستجيب، فتزكو تلك القلوب، وتطيب تلك النفوس.

وقد فعل ﷺ ذلك فقد كان يهيئ نفوس المشركين للسماع، فحينما جاءه عتبة بن ربيعة لمفاوضته ﷺ هيأ نفسه للسماع أولًا بقوله: "قد فرغت يا أبا الوليد.. " قال: نعم، فقال: " يابن أخي فاسمع "، ولا يخفى على أحد ما في هذه الملاطفة والتكنية من تهيئة للنفس للسماع، وحين اتكأ عتبة على يديه وقال: أسمع، أسمعه ﷺ صدرًا من سورة فصلت [3].

ونجد مصعب بن عمير - وهو مبعوثه ﷺ للدعوة- يبدأ بتهيئة نفوس مدعويه للسماع، فحينما جاءه كل من زعيمي بني عبد الأشهل، أسيد بن

---

١ - انظر: منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، طبعة مؤسسة الرسالة، ص ١٣.

٢ - التوبة ٦ .

٣ - انظر القصة كاملة في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين الهندي ١٢ \ ٢٩٨ باب المعجزات ودلائل النبوة ، وتفسير ابن كثير ٧ \ ١٦٣ ، وغيره من التفاسير .

حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما كان يبدأهما بعرض السماع أولًا فيقول: " أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكرهه "[1].

وبهذه الملاطفة والعرض المنصف هيأ نفسيهما للسماع، فلما سمعا أسلما، وأسلم أقوامهما.

وقد كان ﷺ يهيئ نفوس أصحابه للسماع فقد روى البخاري عن جرير أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: "استنصت الناس " فقال: " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض "[2].

فدل الحديث على أنه ﷺ استنصت أصحابه قبل أن يعظهم ليهيئ نفوسهم لسماع كلامه، ثم حفظه، ثم العمل به ونشره.

وقد نقل ابن حجر عن سفيان الثوري حكمة عظيمة بيَّن فيها التدرج في تلقي العلم، وأن أوله الاستماع وهي: أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر " [3]، كما نقل البيهقي عن سفيان بن عيينة قوله: " أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر " [4].

ومما كان يهيئ به ﷺ نفوس أصحابه للسماع والفهم أنه عليه الصلاة

---

١ - انظر السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي ٢ \ ١٧٠ط دار المعرفة ١٤٠٠ه ، وانظر الكشف والبيان لأبي إسحاق النيسابوري ط دار إحياء التراث العربي ط١- بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .

٢ - أخرجه البخاري في صحيحه ١ \ ٢٠٥ باب الانصات للعلماء عن جرير، ومسلم ١ \ ٢٠٤ باب بيان معنى قول النبي ﷺ عن جرير .

٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١ \ ٢١٧ ، باب قوله الانصات للعلماء

٤ - شعب الإيمان للبيهقي ٢ \ ٢٨٤ باب وينبغي لطالب العلم .

والسلام كان يبدأ بالسؤال أولًا ثم يلقي عليهم المسألة، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: " أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: "يا أيها الناس أي يوم هذا؟ " قالوا: يوم حرام، قال: " فأي بلد هذا؟ " قالوا: بلد حرام، قال: " فأي شهر هذا؟ " قالوا: شهر حرام، قال: " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا." [1].

فكرر ﷺ السؤال ثلاث مرات ليكون أبلغ في فهمهم وإقبالهم على كلامه، يشير إلى ذلك ابن حجر رحمه الله بقوله: " قال القرطبي: سؤاله ﷺ عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: فإن دماءكم... إلخ مبالغة في تحريم هذه الأشياء " [2].

وتأمل موقفه ﷺ مع ثمامة بن أثال رضي الله عنه حيث أبقاه مربوطًا في سارية في المسجد ثلاثة أيام، وقد أكرمه ﷺ غاية الإكرام ثم منّ عليه، فقال: " أطلِقوا ثمامة " [3]، فكان لهذا التعامل أثره في تهيئة نفسه لإقراره بشهادة التوحيد وسماعه للقرآن الكريم، حتى انقلب بغضه للرسول ﷺ حبًّا في ساعة واحدة.

ومما كان يهيئ به ﷺ النفوس للسماع الترحيب بالقادم والتلطف معه

---

[1] - أخرجه البخارى ١ / ٢٣٦ باب الخطبة أيام منى عن ابن عباس ، ومسلم ٩ \ ٣٣ باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض عن أبي بكرة عن أبيه .

٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١ \ ١٥٩ ، باب قول النبي ﷺ .

٣ - أخرجه البخاري في صحيحه ٢ \ ٢٦١ باب الاغتسال ‘ذا أسلم أسير وربط الأسير عن أبي هريرة .

وتأنيسه والثناء عليه كما فعل ﷺ مع وفد عبد القيس، حيث أثنى عليهم وأخبر أنهم خير أهل المشرق، فاستقبلهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- وبشرهم بذلك، ثم بعد وصولهم رحب بهم ﷺ، حيث قال لهم: "مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى " [١].

فدل ذلك على أن الاهتمام بالمدعوين مدخل طبيعي إلى نفوسهم وله أثره في تلقي النفوس للحق وقبوله، وبالتدرج في الدعوة تظهر أهمية مراعاة العوامل النفسية لدى المدعوين وبهذا الاهتمام وتلك المراعاة تتهيأ نفوسهم لسماع الحق ومن ثَمَّ قبوله.

رابعا: التهيئة لقبول الحق والاقتناع به:

المستمعون أصناف، منهم المعرض الممتنع، ومنهم من يسمع ولم يفقه المعنى، ومنهم من يفقه ولم يقبل، ومنهم من يسمع سماع فقه وقبول وهؤلاء هم الذين تتهيأ نفوسهم للقبول، وقد ذكرهم الله بقوله: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [٢]، وبشرهم وأثنى عليهم بقوله سبحانه: (فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)[٣].

وبشرهم ﷺ وأثنى عليهم بقوله: " نضّر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه

---

١ - أخرجه البخاري في صحيحه ١ \ ٩٢ باب أداء الخمس من الإيمان عن أبي حمزة ، ومسلم ١ \ ١٠٧ باب الأمر بالإيمان بالله تعالى .

٢ - المائدة ٨٣.

٣ - الزمر ١٦ ، ١٧.

ليس بفقيه"[1].

هذا الصنف المستمع سماع فقه وقبول هم الذين تدرج الشارع في دعوتهم، فكانت التشريعات الإلهية والتوجيهات النبوية تتدرج في تهيئة نفوسهم للقبول شيئًا فشيئًا، ولا شك أن الحكمة في هذا التدرج الحكيم تهيئة النفوس للقبول، ويُفهم من هذا أن عدم التدرج لا يؤدي إلى القبول بل يؤدي إلى النفور غالبًا.

وهكذا.. إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يُشرِّع أمرًا كان تشريعه له على سبيل التدرج وهذا من عظم حكمته في التشريع، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة على الذين كُلِّفوا به، وبالتالي فلا تتهيأ نفوسهم لقبول ذلك التشريع، وقد أشارت إلى ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها: " ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها "[2]، فدل ذلك على أن التدرج يهيئ النفوس للقبول والتلقي، وقد بين ابن حجر ذلك بقوله: " وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليُقبَل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلا حُبِّبَ إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالبًا الازدياد بخلاف ضده"[3].

هذا ما كان يفعله النبي ﷺ مع مدعويه، وقد شهد بهذا أحد الصحابة الكرام وهو معاوية بن الحكم السُّلَيمي، إذ يقول حينما نظر الصحابة إليه نظرة تعجب واستغراب بسبب أنه شمَّت رجلًا عطس في الصلاة مع

---

١ - أخرجه الترمذي في سننه ٩ \ ٢٥٦ باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع عن زيد بن ثابت ، وابن ماجه ١ \ ٢٦٧ عن زيد بن ثابت .

٢ - سبق تخريجه في مقدمة البحث .

٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري ١ \ ١٦٣ .

رسول الله ﷺ: ".. فبأبي هو وأمي ما رأيت مُعلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) " [١].

يقول الإمام النووي معلقًا على هذا الحديث: " فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخُلُق الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته، وشفقته عليهم، وفيه التخلُّق بخُلُقه ﷺ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه " [٢].

والنفوس التي سمعت ولم تقبل كان ﷺ يهيؤها للقبول بشيء مما تحبه النفوس كالعطاء أو غيره، يدل على ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه: " أن النبي ﷺ غزا غزوة الفتح، ثم خرج بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النَّعم، ثم مائة، ثم مائة، قال ابن شهاب حدثني سعيد بن المسيَّب أن صفوان قال:(والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ) "[٣].

فصفوان بن أمية رضي الله عنه كان ممن يسمع كثيرًا ولم يقبل، ولكن حينما أعطاه النبي ﷺ هذا العطاء كان سببًا في قبوله وتغير مشاعره نحو الرسول ﷺ ونحو الإسلام.

---

١ - أخرجه مسلم في صحيحه ٢ \ ١٤٠ باب بحريم الكلام في الصلاة عن معاوية بن الحكم السُّلَيمي

٢ - شرح النووي على مسلم ٥ \ ٢٠ باب تحريم الكلام في الصلاة .

٣ - أخرجه مسلم ١١ \ ٤٤٩ باب ما سئل رسول الله ﷺ عنه عن ابن شهاب ، والبهقي بسننه الكبرى ٧ \ ١٩ باب من يعطى من المؤلفة قلوبهم عن ابن شهاب .

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على أهمية أسلوب التدرج واستخدامه فى الدعوة الإسلامية، حتى يتم قبول الناس بالحق.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف مبعوث للعالمين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين، أما بعد:

فقد من الله علىَّ بإتمام هذا البحث الدعوى الذي تحدثت فيه عن أهمية التدرج في الدعوة الإسلامية وأثره في الاقناع، وأود هنا أن أعرض أهم النتائج التي تُستنتج من عناصر هذا البحث، وذلك في النقاط الآتية:

١- التدرج من أعظم سمات الشرع الحنيف فإن الله سبحانه وتعالى لم يُنزل كتابه الكريم على نبيه الأمين جملة واحدة بل أنزله متفرقا منجَّما على مدى ثلاث وعشرين سنة من الزمان وذلك مراعاة لأحوال المدعوين.

٢- الناظر لدعوة النبي ﷺ وأسلوبه في الدعوة يعرف أنه كان يأخذ على يد كل إنسان على ما يستطيعه، ويحمله على قدرته، ويتدرج مع أصحابه في الأمور يدعوهم إليها لكي يقبلوها.

٣- التدرُّج في التشريع من أبرز الحِكَم الالهية، وما ذاك إلَّا لجذب الناس إلى الإسلام دون أنْ يثقل عليهم أو يُنفِّرَهم، لكي يبلغ بهم المنزلة التي يريدها الله تعالى وهي الالتزام بمنهج الإسلام كاملًا شاملًا لكل الحياة.

٤- التدرُّج سنة من سنن الله في خلقه، فمن أراد أنْ يغيّر أو يُصلح فيجب عليه أنْ يتبع هذه السُّنَّة، ويتدبر أولًا الواقع الذي يريد تغييره،

٥- تربية الأمم والمجتمعات لا تتم إلَّا بالتدرج، لأن التربية على منهج الإسلام تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل، ولا تتم بين يوم وليلة.

أسأل الله التوفيق والرشاد، والعون والسداد، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المراجع

- القرآن الكريم
- تفسير البغوى المسمى معالم التنزيل طبعة دار طيبة ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩ م.
- تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، ط مصطفى البابي الحلبي ط٣ ١٣٨٢ ه ١٩٦٢ م.
- جامع البيان للطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط عالم الكتب، بيروت.
- حكمة التشريع الإسلامى للربا للدكتور يوسف حامد العالم ط دار الفضيلة.
- الخمر بين الطب والفقه: للدكتور/محمد علي الباز، ط الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط ٦، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م
- رسالة عن الخمر والميسر والسباق والوحدة الاسلامية: لمحمد المبارك ط دار المعرفة
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي٠ط دار المعرفة ١٤٠٠ه.
- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث. علي محمد محمد الصلابي ط٧ دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٩ هـ.
- سنن أبي داود المكتبة العصرية. بيروت.
- السنن الكبرى للبيهقي ط دار الكتب العلمية ط ٢٠٠٣ م
- شرح النووي على مسلم ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- شعب الإيمان للبيهقي ط دار الكتب العلمية ١٤٢٣ ه.
- صحيح البخاري ط دار الريان للتراث ط١ ١٩٨٦ م
- صحيح مسلم ط دار الحديث ط١١٩٩١
- عشرة النساء للامام النسائي تحقيق. علي بن نايف الشحود
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابوري، ط دار الكتب العلمية الطبعة الاولى
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط. دار الريان للتراث.
- فقه الصيام في الإسلام: للدكتور/أحمد مصطفى سليمان، ط١ دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨- ١٩٨٨.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي. ط ٢ دار إحياء التراث
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين الهنديط مؤسسة الرسالة.
- لسان العرب لابن منظور القاهرة ط دار الحديث.
- مختصر تفسير ابن كثير، طبعة دار القرآن الكريم، بيروت
- المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي: مصطفى شلبي ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي طبعة مؤسسة الرسالة ط دار الكلم الطيب
١٤١٩- ١٩٩٨م.
- المصنف لعبد الرزاق ط المكتب الإسلامى. بيروت ١٣٩٢ هـ.
- المعجم الوسيط ط دار إحياء التراث الإسلامي
- المعجم الأوسط للطبراني ط دار الحرمين ١٤١٥- ١٩٩٥ م.

- المسند للإمام أحمد ط المكتب الإسلامى. بيروت ط٢ ١٩٧٨ م
- مفتاح دار السعادة لابن القيم ط مؤسسة الرسالة، بيروت. ط٤ ١٩٨٥ م
- منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، ط مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٨
- الموافقات للإمام الشاطبى طبعة دار الفكر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- المقدمة	٩٩٥
- المبحث الأول:مفهوم التدرج وأهميته فى الدعوة الإسلامية	٩٩٨
- تعريف التدرج	٩٩٨
- أهمية التدرج فى الدعوة الإسلامية	٩٩٩
- الحكمة من التدرج	١٠٠٣
- المبحث الثانى: نماذج من مجالات التدرج فى الدعوة الإسلامية	١٠٠٨
- التدرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٠٠٨
- التدرج في طلب العلم	١٠١١
- التدرج في التربية	١٠١٢
- التدرج في إصلاح المجتمع	١٠١٣
- التدرج في الحوار والمناظرة	١٠١٤
- التدرج فى نزول الأحكام الشرعية وعرضها على المدعوين	١٠١٥
التدرُّج في فرض بعض الشعائر	١٠١٦
- التدرُّج في تحريم بعض العادات	١٠١٧
المبحث الثالث: أثر أسلوب التدرج فى إقناع المدعوين	١٠٢٢
الموضوع	**الصفحة**
الخاتمة	١٠٣٤
فهرس المراجع	١٠٣٥
- فهرس الموضوعات	١٠٣٧

***